# دراسة عامة

## لأجيال شعراء ما بعد العصر الأموى

يمكن دراسة الشعر الأندلسى بمتابعة تطور الظواهر الفنية التى تشكل كينونة الشعر، ويمكن متابعة ذلك التطور إما بتقسيم الشعراء إلى أجيال ثم نبحث عن إضافات كل جيل، وإما بدراسة الموضوعات وما يعتريها من تطور. والأفضل الجمع بين الطريقتين .

وسوف نتابع الموضوعات المختلفة على مدى الأجيال التى تلت سقوط الدولة الأموية (الطوائف / المرابطون / الموحدون / العصر الغرناطى ومقدماته بعودة الطوائف لفترة محدودة بعد اختفاء حكم الموحدين، وانكماش تلك الطوائف إلى طائفة واحدة هى مملكة بنى الأحمر فى غرناطة).

وسوف نلاحظ امتداد بعض الظواهر الفنية السابقة على هذه الأجيال منها ميل شعراء الأندلس إلى المقطوعة التى يغلب عليها السرد والحوار، والجديد فى هذه الفترة (ولاسيما عصر الطوائف) هو توظيف المقطوعات فى موضوعات الغزل والطبيعة خاصةً (كما نرى عن ابن زيدون / ابن اليسع / ابن الزقاق)، وأول من أهمل القصيدة الطويلة ولجأ إلى المقطوعة كان شعراء الجيل الأول (المعاصر لعبد الرحمن الأوسط حتى الأمير محمد) [٢٠٦-٢٧٣] والجيل الثانى (المعاصر للأمير عبد الله، ثم لعبد الرحمن الثالث) [٢٧٥-٣٥٠] أما الأجيال الثلاثة فسوف تتجه بالمقطوعة من الموقف الاجتماعى والسيرة الذاتية (كما رأينا عند الغزال) إلى الغزل والطبيعة والسياسة والتصوف. ولن تظهر القصائد الطوال إلا فى المدح والرثاء، والمدح هنا لن يختلف

كثيرا عن المدح فى المشرق سوى فى عدة أمور جزئية، منها اقتراب المسافة الإنسانية بين الشاعر والممدوح فى أغلب الأحوال ففى عصر الطوائف بالصدفة صار ذاك ممدوحاً والآخر مادحا، فقد تراوح الشعراء فى شغر مناصب بين الوزارة والملك، وبالتالى فصفات الممدوح تكاد تقترب من صفات المحبوبة، أى أن المدح استعار بعض خصائص الغزل، كذلك لضرورة الجهاد قد يتم تحريض الممدوح على القتال ووصفه بالبطولة، وفى ظل هذا الجو العسكرى سوف تغلب لغة الحرب على الشعر عامة ولاسيما المدح ثم الغزل (راجع نص محمدج بن البيْن البطليوسى).

أيضا سوف يميل الشعراء إلى تزكية الممدوح على غيره من الممدوحين (ملوك الطوائف الآخرين أو باقى ولاة المرابطين والموحدين الذين أبقوا تمزق الأندلس بتقسيمها إدارياً وتوزيعها بين الولاة). وما عدا ذلك فالقصيدة المدحية تنقسم قسمين : المقدمة الغزلية، ثم المدح، وغالباً ما يكون المدح مرتبطاً بمناسبة خاصة بالممدوح (كانتصاره فى معركة أو احتفال عائلى) أو خاصة بالشاعر المدّاح (كاعتذار أو عتاب أو طلب المنصب أو المال أو الانتصاف).

أما قصيدة الرثاء الطويلة فالحق أنها تميزت جدا فى الأندلس واختلطت اختلاطا تاما بشعر الزهد. وللأندلس تراث واسع حول الزهد، فلدينا أخبار عن ترديدهم شعر الزهد فى المساجد، وقد ارتبط ذلك بالثورات (كما حدث فى عهد الحكم الربضى). ويذكرنى خبر ترديد شعر الزهد فى المساجد بما كان يحدث فى مساجد بغداد أثناء قصف الأمريكان لها، فقط غطت أشعار الزهد على أصوات القنابل أحيانا أثناء البثّ التلفزيونى المباشر لأحداث قصف بغداد وغزوها. ولاشك أن معاناة الأندلسيين للغارات المستمرة سواء من العدوّ الشمالى أو من المنتزين فى الداخل قد جعلهم يتمثّلون الموت

طوال الوقت، وهذا التمثل سوف ينعكس فى حياتهم إلى سلوك ذى وجهين متقابلين، السلوك الأول هو تذكّر أن الحياة فانية وأن الزهد هو طريق الخلاص فى الآخرة ليتحول ذلك إلى شعر من ناحية وإلى إعجاب بشعراء الزهد المشارقة، ومن ثمّ فليس غريبا أن الذى حفظ معظم ما وصلنا من شعر أبى العتاهية هم الأندلسيون (ابن عبد البر)، أما السلوك الثانى المقابل فهو حب الحياة وانتهاب اللذة انتهابا قبل أن يحرمهم منها الموت، ويظهر ذلك فى سهراتهم ومتنزهاتهم وأشعارهم الحسية التى قد تصل إلى ذروتها عند ابن خفاجة بجانب إعجابهم الشديد بأبى نواس ومحاكاته، ولا بأس من أن يجمع الرجل منهم بين السلوكين فى حياته اليومية وفى أشعاره، لكن قد ينفرد بسلوك اللذة فى الشباب ثم يمحّص ذلك ويكفر عنه فى شيخوخته، ومن هنا نفسر ممحصات ابن عبد ربه والموشحات المكفّرات وعودة ابن خفاجة (ولا أشك أن غيره من الشعراء المعمّرين قد فعلوا ما فعل) إلى شعره فى آخر حياته، كى يحذف منه الشعر المسرف فى الحسيَّة واللذة، ويضيف إليه أشعاراً زهدية.

ومن ناحية أخرى يكثر الزهاد والمتصوفة وتكثر أشعارهم الزهدية ومجالس سماعهم. وقد ضاعت معظم أشعار الزهد بسبب ارتباطها بشكل أو بآخر بالتمرد على الدولة، ربما لكثرة ترف الحكام والفقهاء والأعيان وانغماسهم فى حياة الفساد، وهؤلاء أصحاب سلطة على مؤرخى الأدب، فاختفت أشعار الزهد والموشحات المكفّرات، لكن سيصلنا ديوان كامل فى شعر الزهد لأبى إسحق الإلبيرى. وقد أوردنا له قصيدتين فى إحداهما نرى حواره مع الدنيا كى يفحمها بتفضيل الآخرة، وفى الأخرى يحدثنا عن علاقة العبد بالرب مستخدما لفظ الجلالة (الله) قافية، مما يرجح استخدام مثل هذه القصيدة فى الغناء فى المساجد ومجالس السماع الدينى الاحتفالى.

ويبدو لنا نفوذ شعر الزهد وشعرائه من قصيدة أطلقها أبو إسحاق الإلبيرى ضد ابن النغريلة اليهودى وزير بنى زيرى، حيث حرّض المسلمين ضد أن يدير شئونهم يهودى، مما دفع العامة إلى الثورة وقتل الوزير اليهودى. ونحن لا نوافق على هذه الروح العنصرية التى بدأت تتسرب إلى الحياة الأندلسية مبشرة بزوالها على المدى الاستراتيجى، لكننا نورد هذا الخبر لنعرض مدى خطورة شعر الزهد فى الحياة الأندلسية، ومدى أهمية – بالتالى – شعر الرثاء الزهدى، لأنه هكذا يمثل أحد وجهى احتياج شعب له عاش دائما تحت حد السيف متمثلاً شبح الموت، باحثا بجانب هذا الوجه الزهدى عن الوجه الحسى (اللذة)، كما سوف نرى ليس فى الشعر فحسب، ولكن فى تخطيط المدن وعمارتها والعلاقة بالطبيعة.

مما سبق نرى أن شعر الرثاء يكاد يفقد خصيصته التى رأيناها فى المشرق وهى مدح الميّت وتأبينه، وليس مجرد وعظ الناس ودفعهم إلى الزهد.

ومن الظواهر الأندلسية فيما يتعلق بالمدح والرثاء هو كثرة شعر مدح النساء ورثائهن، لسببين الأول الدور المتميز للمرأة فى الأندلس بسبب انشغال الرجال بالحرب وقيادة المرأة للتعليم والاقتصاد والعمل. أما السبب الثانى فهو سفور المرأة البربرية ونفوذها الخارق بصفة خاصة فى عهد المرابطين. أيضا سوف يكثر مدح الفقهاء ورثاؤهم لنفوذهم الخارق فى تلك العصور ابتداء من الطوائف ومرورا بالمرابطين والموحدين وانتهاء بالعصر الغرناطى، لأنهم المصدر الوحيد لشرعية الدولة بفتاويهم وتأثيرهم على العامة.

* * *

ويتصل بما سبق شعر التحريض والثورة والذى لا نشك فى ارتباطه بشعر الزهد

كما سبق الذكر، لكنه يستقل أحيانا، ويشبه أشعار التحريض الثورية المعاصرة كما نرى ذلك فى النص النادر للأعمى التطيلى (إلى الله أشكو الذى نحن فيه)، ولعل سبب ندرة هذا النص أن مثل تلك الأشعار لا تصل إلينا ولا يجرؤ المؤرخون على إيرادها فى كتاباتهم التاريخية. ونحن نرى أهمية هذا النص القصوى لأنه يمثل قطاعا من الأدب الأندلسى قد اختفى عمدا على يد المؤرخين المنافقين دائما للسلطة، وهو الشعر الثورى، ونحن نرى هذا الرأى طبقا لمعرفتنا للأندلسيين واعتزازهم بكرامتهم، ثم وقوعهم تحت ضغوط إذلالية سواء من الشمال الإسبانى أو من الجنوب البربرى، وهى ضغوط لابد أن تحرك أقلام الشعراء الذين سيتم اغتيال بعضهم (ابن عمار وأبو جعفر بن سعيد على سبيل المثال وليس الحصر)، وسجن وتهديد أمن الكثير منهم مثلما حدث لابن زيدون على يد المعتمد مما أودى به فى ظروف قاسية عانى فيا معاناة جعلت الشيخوخة والمرض يغتالانه اغتيالا استثار أهل قرطبة.